الأمثال الشعبية ودورها في التنشئة الاجتماعية والتربية "رؤية سوسيولوجية"

د. مستور حماد رحيّم•

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة موضوع الأمثال الشعبية، حيث إنَّها –في حياة الشعوب– نتاجُ تجربةٍ إنسانية حضارية متراكمة صاغها الإنسان؛ لتكون التجلي الثقافي للواقع الاجتماعي، ومعبرةً عن المشاعر والأحاسيس تجاه تفاصيل الحياة اليومية بكل ما تحمله من مواقف... ومن الطبيعي أن تختلف اللهجات من بلد إلى آخر، وذلك تبعاً لاختلاف البيئات. وتتطرق الدراسة إلى تعريف الأمثال، وكيفية إنتاجها أو ظهورها، حيث إنَّ الأمثال أكثر أنواع الأدب الشعبي قدرة على حفظ أفكار أفراد المجتمع وسلوكهم وحملها وترجمتها، وحفظ عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ومعتقداتهم الاجتماعية، فهي وعاءٌ يحوي ثقافة المجتمع الذي أنتجها، وحافظ عليها بالتداول والتناقل عبر الأجيال. وتهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على دور الأمثال في التنشئة الاجتماعية والتربية، وهي دراسة نظرية نقدية وصفية في إطار علم الاجتماع الثقافي، وربما النقدي الإنثروبولوجي، وقد استُخدِم تحليل المحتوى من الناحية الكيفية كأحد أساليب منهج البحث الوصفي.

الكلمات المفتاحية: الأمثال الشعبية، التنشئة الاجتماعية، التربية.

مقدمة:

الأمثال الشعبية في حياة الشعوب هي نتاج تجربة إنسانية حضارية متراكمة صاغها الإنسان؛ لتكون التجلي الثقافي للواقع الاجتماعي، ومعبرةً عن المشاعر والأحاسيس تجاه تفاصيل الحياة اليومية بكل ما تحمله من مواقف، ومن الطبيعي أن تختلف اللهجات من بلد إلى آخر، وذلك تبعاً لاختلاف البيئات.

فمن الأمثال الشعبية ما تفرزه "حادثة" أو "حكاية"، حيث تلخص خبرةً حياتيةً، أو موقفًا في عبارة أو تعليق موجز، وقد وجد المثل سبيله إلى البلاغة العربية فيما عرف باسم الاستعارة التمثيلية، حيث يوحي بإجراء

• أستاذ علم الاجتماع المشارك بقسم العلوم الإنسانية والاجتماعية بكلية التربية والعلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة العين للعلوم والتكنولوجيا- العين- الإمارات

تشبيه بين حالتين: الحالة الراهنة التي يستعير فيه القول المتمثل به، والحالة التي صدر عنها ذلك القول، ويكون المثل إشارة موحية تتكئ على خبرة حياتية سابقة.

فالمثل قسم من الحِكم، يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها، ثمّ يتداولها الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها، دون أدنى تغيير؛ لما فيه من إيجاز ودقة في التصوير، "فالكلمة الحكيمة على قسمين: سائر منتشر بين الناس، ودارج على الألسن فهو المثل، وإلا فهي كلمة حكيمة لها قيمتها الخاصة وإن لم تكن سائرة. فلربما يقال "المثل السائر" فالوصف قيد توضيحي لا احترازي؛ لأنّ الانتشار والتداول داخل في مفهوم المثل، ويظهر ذلك من أبي هلال العسكري المتوفى حوالى 400هـ، حيث قال: جعل كل حكمة سائرة مَثَلاً، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به، إلاّ أنّه لا يتفق أن يسير، فلا يكون مَثَلاً" (العسكري، 1988، 10).

فما يميز المثل الشيوع والانتشار، وكثرة الدوران على الألسن، وهذا هو الفارق بينه وبين الحكمة، فالقول الصائب الصادر عن تجربة يسمّى حكمة إذا لم يتداول، ومثلاً إذا كثُر استعماله، وشاع استخدامه في المناسبات المختلفة، فهو "ليس انعكاساً بسيطاً للوعي الجماعي الواقعي، ولكنه يميل دائما إلى أن يبلغ درجة عالية من الانسجام، تعبر عن الطموحات التي ينزع إليها وعي الجماعة" (الحمداني، 1985، 11).

موضوع الدراسة وإشكاليتها:

قد تناول بعض الأدباء الأمثال بالدراسة، حيث أولوها قسطاً وافراً من اهتماماتهم، ونذكر من بينهم – على سبيل المثال لا الحصر –: الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) ، وابن الأثير في كتابه (المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر)، وأبو هلال الحسن العسكري في كتابه (جمهرة الأمثال)، وابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد)، والمفضل الضبي في كتابه (كتاب الأمثال)، ولا تخلو المكتبات من قواميس وكتب تناولت الأمثال، وأوضحت مغزاها والمناسبات التي قيلت فيها.

الأمثال هي –في الواقع– عبارة عن مرآة تعكس ثقافة المجتمع وفلسفته في الحياة، فالبحث في هذا الموضوع يعتبر بحثاً في سلوك الأفراد في مجتمعهم ونشاطاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والتربوية المختلفة. "إنَّ الأمثال حِكم الشعوب والأمم، تبدو فيها نظرتها إلى الحياة، ومذهبها إلى أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية،

فهي تكشف عن جوانب شتى من حياتها اليومية، وكثير من عاداتها وتقاليدها، ولها قداستها في نفوس الناس، بما تتضمن من أحكام يرتضونها"(كيال، 1997، 13)

ولا شـكَّ في أنَّ المثل من أهم الفنون الشـعبية، التي تكشـف عن مختلف التيارات الاجتماعية، ومن خلاله يمكن التعرف على طبيعة العلاقات بين أفراد المجتمع، وفي جميع نواحي الحياة" (شـــعلان، 1972، 5). وتأتي مصـــداقية المثل في التعبير عن الواقع من خلال تميزه عن أنواع الأدب الأخرى، في كونه تلقائياً وبعيداً عن السيطرة من قبل الحكام، فليس لهم القدرة على الوقوف ضد انتشاره، أو حتى التحكم في صياغته أو سرده.

فنحن جميعاً –وبلا شكّ– نلاحظ استخدام الأمثال من قبل الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية، فمنهم من يستخدم هذه الأمثال لمجرد التسلية والسخرية، ومنهم من يستخدمها بقصد التوجيه والإرشاد والتذكير، أو التشجيع، أو النهي عن فعل ما، وقد حملت هذه الأمثال في طياتها العديد من القيم، كما اشتملت على نقائضها، وفي المقابل فقد تركت الأمثال السلبية آثاراً سيئة على سلوك الأفراد، الذين يتعاملون معها عن غير وعيٍ أو إدراك لمضمونها ومقصدها، ومن الملاحظ أن هناك من يقلل من شأنها، ويتجاهل أثرها في حياة الناس، وربما من ينظر إليها كتراث قديم ينبغي أن ينسى!

ومحاولتنا هذه لا تخرج عن كونها نوعًا من الاهتمام الذي نرجو من ورائه تسليط الضوء على دور الأمثال في التنشئة الاجتماعية والتربية، وإن كانت دراستنا نظرية نقدية وصفية في إطار علم الاجتماع الثقافي وربما النقدي الإنثروبولوجي.

أهمية الدراسة:

تكتسب الدراسة أهميتها من خلال كونها:

1– محاولة لتأصيل جانب مهمّ من جوانب التراث الاجتماعي.

2– تبرز الأهمية التربوية والاجتماعية والدينية للأمثال الشعبية.

4– تبَصِّر التربويين والاجتماعيين بالقيم التي يحتاج المجتمع إلى تعزيزها وتنميتها، ومحاولة الوقوف ضد القيم غير المرغوبة أو السالبة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى مجموعة من الأهداف، من أهمها:

1–التعريف بالمثل الشعبي في الوسط الاجتماعي.

2–التعرف على الأهمية الثقافية والتربوية والاجتماعية للأمثال الشعبية.

3–الكشف عن بعض الأمثال وعرضها، وشرح علاقتها بالوظائف المتضمنة.

منهج الدراسة:

حاولنا أن نستخدم تحليل المحتوى من الناحية الكيفية كأحد أساليب منهج البحث الوصفي، وذلك بالتحليل الاجتماعي والتربوي للخلفية الاجتماعية، والقاعدة التربوية للأمثال الشعبية العامية، ومقابلة ذلك – في بعض المواضع– باللغة العربية، حيث قام الباحث بسرد المثل، والمُناخ أو البيئة التي قيل فيها، والهدف الكامن وراءه، أو الرسالة التي يؤديها، سواء أكانت تربوية أم اجتماعية أم دينية.

تعريف المثل لغويا واصطلاحيا:

التعريف اللغوي للمثل: قال المبرد هو: مأخوذ من المثال. وهو قول سائر يشبه حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه، فقولهم: مثل بين يديه إذا انتصب، معناه أشبه الصورة المنتصبة، وفلان أمثل من فلان؛ أي: أشبه بما له الفضل. والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

ويقول الميداني –أيضا– في كتابه: "سميت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالاً؛ لانتصاب صورها في العقول، مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب" (الميداني، 2007، 13). وجاء في تعريف لغوي آخر: أنَّ "أصل المثل التماثل بين الشيئين في الكلام، كقولهم: كما تدين تدان، وهو مثل قولك: هذا مثل الشيء ومثله، وكما تقول: شبيهه وشبهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلاً" (العسكري، 1988، 5).

والمثل الشعبي هو أحد أدوات أدب الشعوب، لذلك ينتشر بلغتهم أو لهجتهم التي يفهمها أبناء الشعب الواحد بكل بساطة، ويتداول بشكل مستمر، كالحكاية الشعبية، أو الشعر الشعبي، أو الأغاني، أو الخرافات

الشعبية، والحكايات التي ترويها الجدات لأحفادهن. وتعتبر الأمثال من أهم أنواع الثقافة الشعبية، فهي متداولة على لسان الناس في كل وقت وزمن، وكثيراً ما نجدها تتحدث عن عادات وتقاليد، وأحياناً تحكي تاريخ شعب معين، وتختلف في مضمونها مع اختلاف مصادرها.

والمثل في قول الفارابي: هو ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه، حتى ابتذلوه فيما بينهم، وقنعوا به في السراء والضراء، ووصلوا به إلى المطالب القصيّة، وهو أبلغ الحكمة؛ لأن الناس لا يجتمعون على ناقص. ولذا فالمثل قيمة خلقية تم الاصطلاح على قبولها في وسطها المُعاش"(البقلي، 1968،76). وهو يمر قبل اعتماده وشيوعه في غربال معايير الشعب والمجتمع، وينمو صراحة أو ضمنًا معبرًا عن هذه المعايير على كل صعيد، وفي كل حال يتعاقب عليها الإنسان في حياته.

التعريف الاصطلاحي للمثل: نجد عدة تعاريف للمثل، منها من أعطى الأولوية أو غلب الجانب الأدبي على الجانب الاجتماعي، وهناك من يقدم ويركز على شكل المثل وأسلوبيته. فابن المقفع يرى أن الكلام إذا جاء على شكل مثل، كان أحسن إلى السمع، وأخف على الحفظ، حيث يقول: "إذا جُعِل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وآنف للسمع، وأوسع لشعوب الحديث" (الميداني، 2007، 14). والشيء نفسه بالنسبة لابن عبد ربه، الذي يركز –أيضاً– على الخاصية الجمالية، فيقول: "والأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلى المعاني، التي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أَسْيَر مِنْ مثلٍ" (ابن عبد ربه، 1982، 63)، فهنا يؤكد على سعة استعمال المثل منذ القدم إلى الآن. أما المرزوقي فيركز على خاصية قصر المثل، حيث يقول: "والمثل جملة من القول، مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها، من غير تغيير ليلحقوا في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب، وإنْ جُهِلت أسبابها التي خرجت عنها" (السيوطي، 2014، ج1، 486). ويمكننا أن نجمل الخصائص العامة للمثل الشعبي فيما يأتي:

- هي الجُمل القصيرة، والعبارات المختصرة، التي تُشبه القصة القصيرة، وتتحدث عن تجربة معينة، مرّ بها أشخاص في زمن معين، يتناولها الناس عندما يعيد الزمن نفسه على شكل مختلف من الناس، بينما الوقائع التي قيلت فيها هذه الأمثال نعيشها في أي حقبة من الزمن.

- الأمثال الشعبية كمٌّ متراكم من التجارب الإنسانية التي مرت على المجتمعات من قديم الزمان، من خلال حوادث ومواقف، استطاع العقل الاجتماعي (الجمعي) أن يصوغها بجمل قصيرة، ومركزة الفكرة، تَنِمُّ عن استيعاب الإنسان لهذه الحالة وإدراكها والفطنة لها، ثم صياغتها بطريقة أدبية وبلاغية.
- الأمثال الشعبية من أبرز عناصر الثقافة الشعبية، فهي مرآة تعكس طبيعة الناس ومعتقداتهم؛ لتغلغلها في معظم جوانب حياتهم اليومية، وهى لا تعكس المواقف المختلفة فقط، بل تتجاوز ذلك أحيانا لتقدم لهم نموذجا يقتدى به في مواقف عديدة.

فالأمثال الشعبية هي إحدى الخصوصيات الثقافية، التي يتّسم بها شعب من الشعوب، وقد ينفرد شعب ما بترديد مجموعة منها، وقد يشترك فيها مع غيره من الشعوب، مع وجود اختلافات بسيطة، كل حسب أسلوبه ولهجته.

الفرق بين الحكمة والمثل:

الحكمة: ناتجة عن دراية، وذات مضمون أعمق، ونابعة من فلسفة ورؤية لدى الشخص، وهى فراسة وذكاء، منبعها علم ودراسة، وثقافة معينة، وفطنة مميزة.

المثل الشعبي: هو حادث معين، يشار إليه بجمل قصيرة على لسان أشخاص من عامة الشعب، نتج في الغالب عن موقف معين، ولا يشترط في هذا الجمع من البشر أن تربطهم صلة بنوع معين من الثقافة، ولكن نطقهم لعبارة قصيرة مختصرة من خلال حدث معين قد يؤخذ به على أنه قول مأثور، و"تلتقي الحكمة مع المثل في بعض وظائفها؛ كالتوجيه والإرشاد، أما هي من حيث كونها مصطلحاً فهي غير المثل، ولها –من حيث طبيعة كل نوع– ما يميزها عن المثل، فالحكمة تقرر وتقنع، فهي تميل إلى الخطابية، والمثل يغمض ويوحي ويخيل، فهو يميل إلى التخييل والشعرية، ودلالة الحكمة مباشرة، ودلالة المثل إيحائية، ووظيفة الحكمة التوجيه، ووظيفة المثل التصوير والتشخيص" (اليزيدي، 2005، 47).

ومن جهة أخرى فالأمثال تكاد تكون شكلاً من أشكال السلطة الأدبية، تفرض على العامة من الناس شكلاً معيناً في تعاملهم، ويأخذ بها معظم الأفراد، شأنها شأن كل الظواهر الاجتماعية الأخرى، الضابطة والضاغطة على أفراد المجتمع، وبالتالي فهي تُعدّ من الأعراف التي تتحكم في المجتمع، مكانتها حية وقوية في القلوب والنفوس. كما يسير عليها ويوافقها أغلب الناس، حيث يأخذون بما تمليه عليهم، يتصرفون بوحي

منها، وتقاوم من ناحية أخرى من يحاول التفرّد في التصرّف أو الخروج عما رسمه المجتمع من قيم ومفاهيم متّبعة.

الأمثال الشعبية كقيمة أدبية:

الأمثال الشعبية هي عبارات وجمل لها قيمة أدبية، كثيرا ما ترتبط بالروايات الشعبية، وقد أدرك العرب الاوائل هذا الكنز اللغوي البليغ، فجمعوها في كتب اعتنت بذلك، منها: **مجمع الأمثال** للميداني، وكتاب **العقد الفريد** لابن عبد ربه الأندلسي، و**الأدب الكبير** لابن المقفع، وكثير من الأدباء واللغويين حرصوا على تجميع الأمثال الشعبية المعروفة في زمنهم؛ خوفاً عليها من الضياع والاندثار، فقد اعتبروها إرثاً لغوياً، تركته أجيال سبقت زمانهم وزماننا، وتناقلها الناس عبر الأجيال. إنها حكمة الشعوب، نستخلص منها كثيراً من الحكم والنصائح والإرشادات والمواعظ، التي تفيد المجتمع وتساعد على بنائه بناءً سليماً.

ويمثل المثل الشعبي فلسفة الفرد والمجتمع في الحياة، فهو خلاصة تجارب الشعب، كما أنه يمثل مرآة لثقافة الأمة واتجاهاتها ونظرتها إلى الحياة، فالأمثال تنقل لنا بصورة أمينة الحياة الاجتماعية للشعوب في فترات مختلفة، كاشفة النقاب عن مكنونات الواقع الاجتماعي، فهي أصدق أداة للتعبير عن حالة الفرد والجماعة.

بما أن المثل الشعبي هو جزء من التراث الشعبي، لذا فهي تقتضي في سيرها وتداولها التناقل شفويا بين أفراد المجتمع، "وهي تبدو في المقام الأول جزءًا لا يتجزأ من التراث الإنساني بوجه عام، ولشعب بعينه بصفة خاصة، حيث تضم في طياتها الخبرة الطويلة، والتجربة العلمية الحسية، والحكمة الشعبية، وآداب السلوك، وكذلك الأمثال تنقل من شفاه إلى شفاه عبر أجيال متعددة" (أبو الفتوح، 1995، 10) فالرواية الشفوية تعد خاصية أو ميزة أساسية لانتقال المثل الشعبي، بل هو جزء من الرواية الشفوية، والأدب الشعبي –أيضًا– يدخل في هذا الجانب، أي ينقل عن طريق الرواية الشفوية عامة، معتمدا على اللغة المنطوقة، التي تعارف المجتمع على فهم رموزها ومدلولاتها، وتعد الذاكرة الناقل الأساسي لهذا الإبداع الشفوي، واللغة الشفوية تتميز بالمرونة والسهولة، ولا تعتمد على قواعد الإعراب، وهي اللغة الأم التي يتعلمها الطفل، ويتلقاها من أسرته، ويتعامل بها في حياته اليومية.

الأمثال ذات طابع شعبي، متصلة بالحياة الاجتماعية، فهي تمتاز بألفة شعبية؛ لأنها نابعة من أوساطه، نمت من صميم البيئة، تبناها الناس وحافظوا عليها من عوامل الزوال والاندثار، "لا تشير الصفة (الشعبي) التي يتصف بها التراث إلى أنه نتاج وزاد من يسمون بـ (الطبقات الشعبية) أو (البسطاء)، وإنما تشير إلى أنه

نتاج الشعب كله وزاده، على اختلاف طبقاته، وفئاته، وبيئاته، ومراحله التاريخية" (رفعت، 1989، 227). فالمثل الشعبي هو وليد التجربة الذاتية، ثم ذابت التجربة الفردية في الجماعة، لتصبح جماعية ومشتركة بين الناس، تمس واقعهم ومعاناتهم، أفراحهم وأتراحهم، في إطار المجتمع الذي وافق عليها من خلال عملية التداول والتناقل. ويحمل المثل في طياته وظائف مختلفة، أهمها الوظيفة التربوية التعليمية، فهو يتميز بالطابع التعليمي، حيث يقوم بعرض الفكرة أو الموقف، ثم يترك المجال للغير مفتوحا، سواء أكان بتقبل النصيحة أو التوجيه والعمل بهما، أم برفضهما.

تتميز الأمثال بالإيقاع، فمن العوامل الأساسية التي جعلت معظم الأمثال القديمة الموجزة تتماسك وتصمد أمام الزمن، توفرها على مصادر إيقاعية، تتجسد في الاعتدال والتناسب بين الأجزاء، وفي التقديم والتأخير، والتراكيب البلاغية، والسجع والجناس، فالإيقاع إذا ما وجد في المثل عمل على إظهاره أكثر من الكلام العادي، والمتكلم عندما يعتمد على الأمثال في حديثه، فإن السامع يتفطن إلى التعابير المثلية؛ وذلك لتغير نبرة صوت المتكلم، وهذا لما تتسم به من خصائص بلاغية وإيقاعية وتركيبية. وانطلاقاً من كل هذا هناك تعريف قدمه **فريديريك زايلر** في مقدمة كتابه علم الأمثال الألمانية، يشمل خصائص المثل الشعبي، يقول: إنّه "القول الجاري على ألسنة الشعب، الذي يتميز بطابع تعليمي، وشكل أدبي مكتمل، يسمو على أشكال التعبير المعروفة" (نبيلة، 1974، 175).

يتبين من خلال هذه الخصائص أن المثل الشعبي يأتي في مقدمة أشكال التعبير الأدبية المتداولة والمعروفة؛ لأنه يعبر عن الواقع الاجتماعي بكل تناقضاته وصراعاته، ويكشف الكثير عن العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراده، بل ويمتاز عن هذه الأشكال بخصائص دقيقة، إنه الصورة الواقعية والحية التي تكشف أحوال المجتمع الذي أعاد خلق المثل وإثراءه، والحفاظ عليه في أبسط صوره المعروفة، وهذا ما ضمن له الديمومة والاستمرارية.

تأثير الأمثال الشعبية على السلوك:

المثل الشعبي لا يعتبر فقط لونا من ألوان الفنون الشعبية، ولكن له تأثيره على سلوكيات الأفراد داخل مجتمع معين، أحيانا قد يكون التأثير إيجابيّاً وفى بعض الأحيان يكون أثر المثل الشعبي سلبياً أو يُفهم كذلك فيضر بالفرد وبالمجتمع الذى يعيش فيه، فهي تساهم بشكل غير مباشر في تشكيل أنماط المجتمع واتجاهاته، مما جعلها محور اهتمام عدد كبير من العلماء والباحثين في هذا المجال، فهي تحمل ملامح شعب كامل؛

كأسلوب معيشته، أو معاييره الأخلاقية، ومعتقداته الدينية، ولا نغفل أنها قد دخلت في جميع مجالات الحياة كالطب والزراعة والتجارة والصناعة، بل ارتبطت –أيضا– بالتقويم والمواسم والمناخ.

فالأمثال الشعبية تحتل حجماً معتبراً من الذاكرة الشعبية، على اعتبار أنها من الأشكال التعبيرية الأكثر انتشاراً وشيوعاً بين الناس، حيث لا تخلو أية ثقافة منها، وهذا الموروث الشعبي يُصنف في مجموع الأدب الذي يعتبر من وجهة نظر سوسيولوجية أو اجتماعية تعبيراً عن الحياة عبر أقوال نثرية، لا تخضع ظاهرياً لنظام معين، لكنها متكاملة في موضوعاتها، ومستقلة لغوياً في بنيات قصيرة، تعكس قيماً فنية وفكرية بل وحتى حضارية، وتؤدي وظائف تعليمية وتربوية واجتماعية، وللتسلية أيضاً، والنهي والزجر والدعوة إلى التآلف وغيرها من الوظائف، ومن هنا يمكن ربطها بمؤسسة التواصل المعرفي الشفوي. فالمثل الشعبي بالإضافة إلى كونه عنصراً من عناصر الثقافة الشعبية، التي يعتبرها البعض مرآة لطبيعة الناس ومعتقداتهم؛ لتكرارها وتعود الناس على سماعها، وتغلغلها في معظم جوانب الحياة اليومية، فهي تعكس المواقف المختلفة، بل تتجاوز ذلك أحياناً لتقدم نموذجا يُقتدى به في مواقف عديدة. كما تساهم في تشكيل أنماط اتجاهات المجتمع وقيمه، مما حدا ببعض الباحثين والمهتمين بدراسة الثقافة الشعبية إلى أن جعلوها محوراً أساسياً في أعمالهم البحثية؛ لما يتسم به المثل من خصائص تساعد على تتبع نشأته، فلكل مثل حكاية تشكل صورة حياة وتماثُل مع التجربة التي أحاطت بمن ضُرب به المثل.

وكثيرة هي الكتب التي حرصت على جمع الأمثال في ثقافتنا العربية بشكل عام، والشعبية بشكل خاص، وكثيرة هي الدراسات والبحوث التي تمحورت حول الأمثال العربية التي اعتنت بجمعها وشرحها، وظهر اتجاه آخر تمثل في الوقوف على الأمثال من القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم توالت الدراسات التي حاولت استجلاء العلاقة بين الأمثال وبين غيرها من الفنون الأدبية، والوقوف على مضامين هذه الأمثال وجماليتها.

ولا غرابة في هذا، فللأمثال أهمية كبيرة من الناحية البلاغية، والحضارية، والتربوية، والجمالية، والوطنية وغيرها، فهي تعد خلاصة تجارب الشعوب، ولب حكمتها، ومنهلاً تربوياً للأجيال اللاحقة. ولهذه الأهمية التربوية ورد ذكرها في القرآن الكريم، فكان من الطبيعي أن يعنى بها العرب بحثاً، وجمعاً، وتصنيفاً، وشرحاً، وموازنة، وتأصيلاً.

والأمثال العربية تكاد تقابلنا في معظم مصادر التراث العربي، وقد اهتم علماء الأدب واللغة والتفسير العرب منذ وقت مبكر بجمعها وتصنيفها وتبويبها وشرحها، وجعلوا منها مادة أدبية وتعليمية وتربوية، وزينوا بها

آدابهم، ودعموا أقوالهم، وعللوا أفعالهم، حيث بقيت تلك الأمثال والحكم حية في تراثهم الكتابي والشفهي إلى يومنا هذا.

وتشكل الأمثال بنمطها اللغوي الشعبي العفوي، أبسط الأشكال الأدبية الفنية وأوجزها عند معظم الشعوب، وتعكس مشاعر الناس، وأفكارهم وتصوراتهم لحياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، ومعظم مظاهر أنشطة حياتهم الأخرى، وتعبر عنها بصورة حية، تصدر عن مختلف مستويات الجماعات الإنسانية، بكافة المعايير التصنيفية لمستويات البشر على اختلاف حضاراتهم.

يُضاف إلى ذلك ما تمتاز به الأمثال من سرعة سريانها على الألسن من جيل إلى جيل، وأحياناً من جماعة إلى جماعة أخرى مختلفة، واختلاف تعبيرها من لغة إلى أخرى، عبر الأزمان والأمكنة، وما لها من أثر السحر في التأثير على الناس وإقناعهم، على الرغم من بساطة معانيها، وصياغتها في معظم الأحيان.

ولمّا كان للأمثال هذه الأهمية، فإنها تكاد تقابلنا في معظم مصادر التراث العربي؛ ككتب التفسير، والمعاجم اللغوية، وأمهات الأدب والمسامرات والأخلاق، وكتب اللغة والنحو، وكتب الحكمة والفلسفة، والتاريخ والسير، وكتب البلاغة والموسوعات الثقافية، إضافة إلى مصنفات الأمثال البحتة.

ولم تقتصر عناية العلماء بالأمثال القديمة فحسب، بل قاموا في الفترات اللاحقة بتدوين الأمثال المحدثة أو المولدة، وإضافتها إلى مواضعها من كتب الأمثال والأدب، كما فعل الميداني 518هـ، مما يعكس مدى وعيهم بأهمية هذا النوع الأدبي، الذي يمثل صفوة اللغة المحكية العفوية، وما يحتويه من خبرة الحواس والشعور والعقل، فيجمع في ثناياه ما بين الحقيقة الفطرية، والمعرفة المكتسبة، مما يسعف في إضاءة بعض جوانب حضارة العرب وتطور فكرهم، ويكشف عن بعض جوانب فلسفة حياتهم الأولى البدائية، وثقافتهم الشفهية، وتطورها في المراحل اللاحقة.

وظيفة الأمثال:

للأمثال كغيرها من الحكم أو الأقوال المأثورة أو الحكايات والقصص وحتى الخرافات أيضا، هدف ووظيفة اجتماعية وتربوية، فللمثل مظاهر عدة؛ لكي يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل، وتتجلى هذه المظاهر في الآتي:

أ . المظهر اللغوي: يتجلى في استعمال أدوات التوكيد والقسم؛ كعبارات: المثل يقول، أو لأن المثل الشعبي يقول، أو والله كما يقول المثل.

ب . المظهر المنطقي: يتجلى في استخدام منطق القياس؛ كاستخدام عبارة: يقوم المثل في مثل حالتك.
ج . المظهر الحضاري: فما يصلح في حضارة لا يصلح في غيرها، فالمثل القائل: "**المرأة خلقت من ضلع أعوج**" هذا المثل إذا كنت مثلا في لندن –أو حتى الآن في الأوساط العربية التي خرج منها هذا المثل يوما ما– ليس من المنطقي ذكره أو الحديث حوله، لذا يتوجب عليك إعادة النظر فيه، أو ربما لا تستطيع ذكره البتة.

د . المظهر الجدلي: وأداته هي الاستفهام، وخصوصا الإنكار منه، من قبيل: **أليس صحيحا أن فاقد الشيء لا يعطيه**، أو استخدام عبارة ألم يقل المثل.

هـ . المظهر النصي: ونجده في استعمال النص الديني، وخصوصا القرآن الكريم والحديث النبوي.
و . المظهر الطبيعي: ونعني الاحتجاج بما هو معروف بالحس ولا يحتاج إلى برهان؛ كاستخدام عبارة "**كم من شجرة عالية تعطي ثمر فاسد**"؛ أي: هناك الكثير من الشجر المرتفع الشامخ، وعلى الرغم من ذلك فإنَّه يعطينا ثمرًا فاسدًا، وهذا يقصد به: ليس الضروري بالشكل وارتفاع الهامة إذا كانت النتيجة سيئة! أو المثل الذي يقول: "**طويل وهايف**"، بمعنى: على الرغم من طوله وحسن مظهره فإنَّه لا فائدة تُرجى منه.

وعموما يمكن القول: إن هذه الوظائف لا تخرج عن وظيفتين أساسيتين: هما الدفاع، والهجوم، ومن ثم يكون المثل الشعبي محققا لمبدأ تربوي تعليمي، أخلاقي، نفسي، ديني، وهو بذلك غاية في الأهمية.

فالمثل باعتباره عُصارة لتجارب الحياة الإنسانية اتجاه مواقف معينة، فهو يساهم في تهذيب الأجيال، وتقويم الأخلاق، وتأديب الأشخاص، وقد يفعل المثل في النفس ما تعجز عنه المحاضرات في الأخلاق، والمثل لا يعرف قيمته إلا العاقلون (المسنون الذين لهم تجارب في حياتهم)، فله قيمة دلالية رفيعة عندهم، فهو يفيد جميع الفئات الاجتماعية: الصغير والكبير والجاهل والعالم، وبالتالي فللمثل عدة وظائف إيجابية، وفي المقابل هناك أمثال شعبية سلبية إن صح القول، فمثلها مثل الأغنية الشعبية، أو هناك ما هي مفيدة ولها دور إيجابي، وهناك التي لها دور سلبي إحباطي، أو بمعنى آخر أوجدتها ظروف سيئة، جعلت أغراض الثقافة كلها تتأثر بالواقع المحيط بها، أو التي هي في الواقع جزءاً منه.

علّنا في هذه الدراسة نتطلع لوظائف الأمثال الشعبية ودورها، التي تحث على أفعال خيرة في العموم، وتُنفر من السلوك السلبي السيئ، أو تُقدم نصحاً لتجنب أفعال معينة، وتحث على أخرى محبوبة ومقبولة في الوسط الاجتماعي، ومن أبرزها:

أ) **الوظيفة التربوية والاجتماعية**:

في البداية يجب أنْ نشير إلى مفهومي التربية والتنشئة الاجتماعية، باعتبارهما من أهمّ العمليات التي تُنْقَلُ بها الثقافة من جيل إلى آخر، فالتربية هي عمليّة التكيّف أو التفاعل بين الفرد وبيئته التي يعيش فيها، وهي عمليّة تضم الأفعال والتأثيرات التي تستهدف نموّ الفرد في جميع جوانب شخصيّته، وتسير به نحو كمال وظائفه عن طريق التكيّف مع ما يحيط به، ومن حيث ما تحتاجه هذه الوظائف من أنماط سلوك وقدرات. وهي –أيضًا– العمل المنسَّق المقصود الهادف إلى نقل المعرفة، وتكوين الإنسان، "والتربية أداة الثقافة، وأداة المجتمع، وأداة الإنسان؛ لإعادة تشكيل وإنتاج الثقافة والمجتمع، والتربية تتناول بكل أشكالها الإنسان طفلاً ومراهقاً فشاباً، تتعهده بإنماء شخصيته في الجوانب الجسمية والنفسية والعقلية، وتُكسبه المعارف والمهارات والاتجاهات، وتعمل على تكيفه في بيئته الاجتماعية" (الحاج محمّد، 2014، 262).

والتنشئة الاجتماعية "عملية تعلم وتعليم، يتضمن التعلم اكتساب الطفل –من خلال التقليد والمحاكاة– التعلم المقصود وغير المقصود العادات والتقاليد والقيم والسلوكيات الاجتماعية والافكار والرموز واللغة وغيرها، التي تمكنه من مسايرة جماعته، والتوافق الاجتماعي معها، وتكسبه الطابع الاجتماعي، وتيسر له الاندماج في الحياة الاجتماعية" (همشري، 2013، 16).

وهي عملية يتحول من خلالها الفرد (الطفل) من كائن بيولوجي يعتمد على غيره، متمركز حول ذاته، لا يهدف في حياته إلاّ إشباع حاجاته الفسيولوجية إلى فرد راشد اجتماعياً، فالمخرجات النهائية لهذه العملية هو ذلك الراشد الذي امتلك خبرات واسعة في مجال المعرفة والقيم والمعايير والاتجاهات، المُدرك لمسؤولياته الاجتماعية، وقيم مجتمعه، والملتزم بها، الضابط لانفعالاته، المتحكم في إشباع حاجاته بما يتفق والمعايير الاجتماعية، القادر على القيام بدوره الفاعل في مجتمعه، بغرض تقدمه وتطوره وازدهاره" (أبو جادو، 2000، 16). وهذه العمليّة يكتسب من خلالها الأطفال الضبط الذاتي، والحكم الخُلقي؛ ليصبحوا أشخاصاً راشدين ومسؤولين عن تصرفاتهم أمام المجتمع، ويمكن تعريفها بشكل أبسط: بأنّها الوسائل والطرق التربويّة، التي تقوم

بها الأسرة والمجتمع، وكل والأدوات والمؤسسات التربوية الرسمية منها والتلقائية في تربية أولادهم سواءً أكانوا أطفالاً أم بالغين.

وتعتبر عمليتا التربية والتنشئة الاجتماعية من الأدوات الأساسية لنقل الثقافة عبر الأجيال، والأمثال الشعبية تعتبر من الوسائل التربوية (والتنشيئية) إذا جاز لنا التعبير في حياتنا الاجتماعية، ومن وسائل الضبط التربوي الاجتماعي، والأمثال مظهر ثقافي، ولها أهمية تربوية كبيرة، فهي ليست مجرد أقوال تحكى في المناسبات المختلفة، من دون أن يكون لها أثر على السامعين.

"إن الأمثال الشعبية تُعدُّ وسيلة تربوية بما فيها من التذكير والوعظ والزجر وتقدير المعالي" (الزركشي،1972، 486). والمثل الشعبي عبارة عن عملة متداولة يومياً، بشكل كبير بين الناس في مجتمعاتهم العامة وفي مجالسهم، وهو يحمل سلطة اجتماعية ضابطة لدى أفراد المجتمع، وبذلك يمكن أن يندرج تحت ما يسمى بالتربية التلقائية، وهي التي تنعدم فيها تقريباً عملية ضبط التعلم وتوجيهه، ويكون اكتساب المعرفة والخبرات والمهارات والعادات في البيئة الاجتماعية.

ويمكن تلخيص الوظيفة التربوية والاجتماعية للأمثال على النحو الآتي:

1- احتواء الأمثال على قيم أخلاقية عديدة، فالمثل الشعبي عبارة عن سلاح يشهره العامة في مواجهة الشذوذ والانحرافات الاجتماعية، وكأنه سياج من القيم يضربه المجتمع من حوله؛ ليحمي نفسه وعاداته وتقاليده" (شعلان، 1972، 46)." فهو ذو مضمون أخلاقي إذ يستقبح الرذيلة ويُحبّذ الفضيلة.

2- المثل الشعبي يعتبر –أيضاً– وسيلة ثقافية تربوية أساسية في "غرس القيم والعادات الاجتماعية في نفوس الأفراد، وهو بنفس الوقت قيد وضابط وقاعدة تنظم التعامل والتواصل بين الناس" (السنّاد، 1992، 217).

3- إن الأمثال بقدر ما تحمل في طياتها –في الغالب– وظيفة اجتماعية أو تربوية معينة إلا أنها في الواقع جاءت نتيجة موقف أو حكاية معينة، وقام بسردها أناس معينون في فترة زمنية معينة، لذلك فهي لا تخلو من غرض أو هدف معين، وضعه الذي قام بسرده لأول مرة، لذلك فقد تكون هناك أمثال وضعت لخدمة شخص معين أو طبقة معينة، وهذا يجعلنا ننفي بعض الأحيان القول: إن الأمثال في عمومها تخدم الخير والفضيلة، فمن الممكن –أيضًا– أن تكون نتيجة ظرف معين، يبرّر فيه صاحبه موقفًا خاطئًا، خاصة إذا كان الطرف الآخر يمثل سلطة أو حكماً يرى الناس أنه يظلمهم أو لا ينصفهم، والمثل يقول: "**من زرع الظلم حصد الخسران**"، أو "**لكل ظالم نهاية**".

وهناك –أيضاً– بعض الأمثال التي يؤيدها بعض الناس ولا يحبها البعض الآخر، مثل تلك التي تحث على البخل والحرص، كما في المثل الشعبي: "**القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود**"، وهو ما يقابله باللغة العربية الفصحى: "**احفظ قرشك الأبيض ليومك الأسود**"، فالبعض لا يؤيد هذا المثل، ربما إذا فُهم على أنه مؤيد للبخل والحرص على المال، ويمكن أن يفهم بشكل آخر، وهو أننا يجب أن نضع جانباً من المال لساعة العسرة. وهناك قول شعبي متداول عندنا في شرق ليبيا، ويؤيد الكريم وأفعاله، فيقول: "**ايد الكريم في ايد الله**" بمعنى يد الكريم في يد الله عز وجل، وهو يحث على الكرم، وطالما شعر الكريم بأن يد الله معه فلا يخيب.

وهناك –أيضاً– مثل نتداوله في أغلب دولنا العربية وهو "**الباب اللي تجيك منه الريح سده واستريح**"، فأنا في تصوري من الناحية السوسيولوجية وربما الدلالية هو مثل يحث على الانزواء وعدم التدخل لأجل الآخرين، ويحث على عدم مساعدة أو تقديم العون للمحتاج؛ لأنه ربما هذا العون يأتي بـ"الريح" أي الصداع والتعب، وعواقبه ليست محمودة، فهذه نصيحة لعدم فعل شيء إيجابي؛ لأن عواقبه سوف تكون سلبية على فاعله، حتى لو كانت هذه الخدمة ذات فائدة للآخرين المحتاجين إليك.

وأيضا المثل الآخر الذي يحثنا على عدم فعل الخير إذا كان هذا الفعل سوف يأتي لنا بالتعب مثل: "**ماتدير خير ما يجيك شر**"، أو "**خيرا تعمل شرا تلقى**"؛ أي: لا تفعل الخير حتى لا يأتيك الشر؛ وأيضاً: "**الأقارب عقارب**"، و"**البعد عن الناس غنيمة**". فهذا النوع من الأمثال ربما قيل في مناسبات، وقام أصحابها بفعل حسن، وقوبلوا بالسوء، ربما يمكننا أن نعتبر هذا منطقياً على المدى القصير، فهذا يعتبر ردة فعل ربما صحيحة على المستوى الشخصي، ولكنها توطد الابتعاد عن فعل الخير ومساعدة الآخرين. فالأمثال إذنْ ليست ذات موقف أخلاقي أحادي ثابت، بل إنها تتضمن أحياناً نوعاً من التضاد، يثير الدهشة ويستدعي التعجب، فالحياة ليست كلها جدّاً ومُثلاً عليا، بل هي خليط من جد وهزل وخير وشر وحق وباطل، ولا ينقصها نوع من التناقض الذي يعكس جدلية الحياة، فلكل حالة لبوسها كما يقال، فقد تجتمع الرحمة مع القسوة في مثلين يعالجان حالة اجتماعية واحدة. ولعلّ هذا ما جعل الجاحظ يكتب "المحاسن والأضداد"، فلا بأس أن ندرك ونتذوق هذه التناقضات والأضداد التي تحفل بها مدونة الأمثال العربية.

ب) <u>الوظيفة الاخلاقية</u> :

أما بالنسبة للوظيفة الأخلاقية للمثل فتتمثل في توجيه أفعالنا، وإرشاد الشخص الذي يقصده ويوجه سلوكه ومعاملته إلى الصواب، فتعتبر هذه الجملة القصيرة أو الحكمة بمثابة نصيحة أو قاعدة سلوكية توجه

سلوك هذا الأخير، فغالبا ما نجده يرشدنا إلى التشبث بالقيم الأخلاقية القيّمة والإيجابية، والابتعاد عن القيم السلبية؛ كالطمع، والحسد، والحقد، والعداوة، ومن بين الأمثال الشعبية التي تعبر عن ذلك مثلا: "**إذا كان صاحبك عسل ما تلحساش كله**"، فهذا يدعو إلى عدم الطمع والشجع فيمن يقدم لك معروفاً، فلا تحاول أن تستفيد من طيبته وكرمه بشكل مستمر، وأيضا المثل: "**أمين لا تخونه وخائن لاتأمنه**"، فهذا يدعونا إلى حسن معاملة الآخر، باختيار السلوك الأمثل والأفضل، ويبعدنا عن الطمع "**الطمع ضرّ ما نفع**" وهو الطمع الذي لا يأتي من ورائه إلا ما هو سلبي.

وتحثنا بعض الأمثال الأخرى على العمل والمشاركة، مثل: "**ديّن واستدين وسدد دينك على آخر مليم**" و"**بيع واشري وشارك الناس في أموالهم**"، هذين المثلين يدلان على المشاركة والعمل، وخاصة النشاط الاقتصادي، بمعنى يمكن أن تستدين وتبيع وتشتري وتشارك الناس في أعمالهم وأموالهم، أو بمعنى آخر يبعد الناس عن التواكل والاعتماد على الآخرين.

ج) الوظيفة الدينية :

بالنسبة للوظيفة الدينية، نجد العديد من الأمثال الشعبية التي تلعب دورا دينياً في حياتنا اليومية، فغالبا ما نجدها تدعونا إلى احترام مبادئ الدين، وتوصي بالصبر والرصانة، ومن بين الأمثال المعبرة عن ذلك:" **الصلاة في وقتها أحسن من الدنيا وما فيها**"، يدعونا هنا المثل إلى احترام أوقات الصلاة، أو الحث على الصلاة بشكل يفيد أن الذي مات ولم يصل سوف يلقى العذاب الشديد "**جاك الموت يا تارك الصلاة**" و "**الصبر دوانا** " و"**الصبر جميل**"، يدعونا المثل إلى الصبر، و"**اللي صبر ظفر واللي ما صبر كفر**".

د) الوظيفة النفسية:

بما أن المثل يلعب دورا أخلاقياً ودينياً، فهو كذلك يلعب دورا نفسياً، وذلك عن طريق تهدئة النفس البشرية، والتفريج عن همومها، ومحاولة جلب السعادة والفرح لها، ومن الأمثال الشعبية التي تلعب هذا الدور النفسي نجد: " **مولاها ربي**"؛ بمعنى توكل على الله واترك الأمر للخالق. وفي القناعة :"**على قيس فراشك مد رجليك**"، وعند البعض: "**على قد لحافك مد رجليك**"، حيث إذا كان غطاؤك قصيرًا فلا تحاول أن تمدّ رجليك أكثر من ذلك. و"**اللي ما يقنع ما يشبع، والقناعة كنز**" و"**المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين**".

وفي عدم التواكل على الآخرين خوفا من المنة: "**حمارك العرج ولا جمل ولد عمك**"، وفي مثل مشابه آخر: "**ولا جميل ابن عمك**"، بمعنى حمارك الأعرج أفضل من جمل أو جميل ابن عمك، الذي سوف يذكر للناس أنه أقرضك إياه. و"**اللي من نصيبك تصيبك**"؛ أي: الذي من نصيبك سوف يكون لك فيه حظ وقسمة، و"**اللي ما تقسم لك تطيح بين ايديك وفمك**"؛ أي: الشيء الذي لا يقسمه الله لك ربما يسقط بين يديك وفي فمك، بمعنى هي لقمة كادت تصل إلى فمك، ولكن لأنه ليس لك فيها نصيب فسقطت ولم تعد من نصيبك. و"**اللي ما هي فيدك تكيدك**"؛ بمعني الشيء الذي لا تستطيع التحكم فيه ليس لك من الأمر شيء في تغييره: "**التي ليست في يدك تتعبك**". وهناك –أيضًا– بعض الأمثال تدل على وجوب الرضا بالقسمة إذا كان الناس الآخرين يعانون من نفس المشكلة؛ كالفقر وضيق ذات اليد وبعض المشكلات الأخرى، فيقول المثل: "**كيف الناس لا باس**"؛ بمعنى انظر إلى الناس، فأنت لست وحدك، بل هناك الكثير مثل حالك، لذلك اقتنع بما قسمه الله لك. فهذه الأمثال نجدها تقوم بدور تهدئة النفس حول أمر معين، وحثها على تقبل الواقع، حيث يجب أخذ الأمور ببساطة، وتركها لله سبحانه وتعالى، والعيش برضا كبقية الخلق.

هـ) <u>الوظيفة التعليمية والحجاجية</u> :

انطلاقا مما سبق فإن المثل الشعبي ما هو إلا خلاصة خبرات، يتضمن معانٍ دينية وأخلاقية ونفسية واجتماعية، تكشف لنا عن سلوك الفرد في المجموعة التي ينتمي إليها. ومن ثم فالمثل خطاب بعيد عن الحياد، فكل مثل يوجه إلى متلق تتوارى خلفه نوايا تتحول إلى وظائف، إذا كان المثل ذا طابع أخلاقي وديني ونفسي، فإنه بالإضافة إلى ذلك يعد ذا طابع ووظيفة تعلمية، فهو يوجه السلوك الإنساني، ويحدد القيم والمبادئ التي ترتضيها الجماعة، وينص على ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون من السلوك والمبادئ، من دون إلزام إلا بسلطان العادات والتقاليد السائدة في المجتمع.

ويظهر الطابع التعليمي التهذيبي في الأمثال الوعظية واضحا أكثر من ظهوره في أي نوع آخر من الأمثال الشعبية، فالمثل في إطاره التعليمي يوجه السلوك بأسلوب مباشر أحيانا، كما يوجهه بأسلوب غير مباشر أحيانا أخرى، وذلك بتقديم نماذج بشرية شاذة أو إبراز سلوك اجتماعي قبيح، والمثل في هذه الحالة يريد أن يُنفرنا من هذه النماذج أو هذا السلوك، وكأنه يريد أن يقول: لا تفعلوا هذا السلوك المشين وغير المقبول. وتتجسد هذه الأمثال في بعض النماذج، مثل: "**اللي يسلف السبت يلقى الأحد**"؛ أي: إذا اقترفت ذنباً أو خطيئة يوم السبت فسوف تلاقي هذا يوم الأحد، وهو مثل يحث على ألا تفعل الخطأ؛ لأنك يوما ما سوف تكون أنت

الطرف الذي يُمارس عليه هذا الخطأ، "**اللي ما ترضاها لروحك ما اديرهاش لغيرك**"؛ بمعنى الشيء الذي لا ترضاه لنفسك لا تفعله لغيرك، وربما يقابله القول العربي المشهور:

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

والمثل الذي يحث على حُسن اختيار الرفيق، مثل: "**مع من شفتك شبهتك**"، وهو مقابل المثل العربي: "**قل لي من تُصاحب، أقل لك من أنت**"، أو المثل الشعبي: "**صاحبة الجربة جربة**"؛ بمعنى الرفيقة تؤثر في صاحبتها، ولو كانت جرباء لكانت الأخرى مثلها، و"**الصاحب على الصاحب يبيع عباته**"؛ بمعنى من أجل الصديق يمكن أن يبيع الصديق عباءته، والمقصود بالعباءة في لهجة أهل شرق ليبيا هي اللباس الشعبي الرجالي ذو الوجاهة، وأيضاً: "**الصاحب اللي ما ياوى العدو خير منه**"، والمقصود هنا بكلمة (ياوى)؛ أي: يداري ويكون ذا فائدة، فإذا لم يكن كذلك فالعدو أفضل منه. وأيضا: "**الرفيق قبل الطريق**" بمعنى يجب اختيار الرفيق قبل السفر. و"**صاحبك مراتك**" وهنا كلمة (مراتك) بمعن المرآة التي ترى فيها نفسك. والأمثال كثيرة في هذا المجال، فالمثل إذن يعمد إلى توجيه السلوك الإنساني بأسلوب ظريف لطيف خفيف على النفس، فيخلو من الطابع الخطابي الوعظي المباشر، ويجسد العيب الاجتماعي تجسيدا يجعلنا ننبذه وننفر منه تماما؛ ليسلم منه المجتمع.

وربما تكون الوظيفة التعليمية للمثل الشعبي بطريقة عكسية، ويمكن أن تُفهم من جانبين: أحدهما سلبي، والآخر إيجابي؛ كالمثل القائل: "**المال السايب يعلم السرقة**"؛ أي: المال الذي لا يُصان يجعل الآخرين يسرقونه، ويتعلمون سلوك السرقة؛ لأنه مُهمل، في الواقع هذا المثل موجه للناس من أجل الحرص على أموالهم، ومن ناحية أخرى يرى البعض بأنه تبرير لفعل غير محمود اجتماعياً ولا قانونياً، وهو فعل السرقة! وكذلك المثل القائل: "**العين ما تعلى على الحاجب**"؛ ومعناه: لكل فرد مقام، وتختلف مقامات الأشخاص في المجتمع، فلا يجوز أن يتجرأ شخص جاهل على مكانة المتعلم في المجتمع، أو المجرم على مكانة الشرطي الذي يحفظ الأمن، أو الابن على الأب وهكذا، ومن جهة أخرى يراه البعض بأنه يزيد ويوطد للطبقية والعنصرية بين الناس.

وإلى جانب هذه الوظائف السابقة الذكر نجد **الوظيفة الحجاجية**، حيث توظف الأمثال بصفة مهيمنة في أمتنا للاحتجاج على صحة القضايا المطروحة للنقاش، وهنا يصبح المثل حجة لا يمكن دحضها أو تفنيدها. وقد اتخذ الاحتجاج عدة مظاهر: إما لغوية، وإما منطقية، وإما حضارية، وإما جدلية، وإما نصية، وإما طبيعية؛ وذلك لأن المثل مسلم بصحته، ومقبول عند جميع الناس، لهذا فإن فيه مادة غنية لأصحاب المناظرة والجدل،

فهم يستخدمونه فيقوي حجتهم ويوهن حجج خصومهم، ومن ذلك تقديم الخبرات العلمية والعملية بصورة موجزة تغني عن سرد طويل، ومن ذلك أداؤه البلاغي ووظيفته الجمالية في الكلام" (الحدّاد، 1998، 38).

وقال الماوردي 450هـ في كتابه أدب الدنيا والدين: "للأمثال من الكلام موقع الإسماع، والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة" (طه، 2002، 13).

فالأمثال الشعبية بهذه الأهمية يمكن أن نتصورها مؤلفاً ضخماً، يقرأ فيه الباحث المهتم بهذا الحقل أخلاق المجتمع وعاداته وطرق تفكيره، ولعل هذا ما حدا بالاستعمار الفرنسي إلى الاستعانة بعلماء الاجتماع والأثنوجرافيا والأنثروبولوجيا، حيث وفرت السلطات الفرنسية حينها لهؤلاء كل ما من شأنه مساعدتهم للوصول إلى جمع التراث، بما فيه الأمثال، وإجراء دراسات حوله، وتزويد السلطات العسكرية بنتائج هذه البحوث، وقد كان بعض القادة العسكريين الاستعماريين في الوطن العربي يعتمدون في مخططاتهم واستراتيجيتهم الحربية واللوجستية على نتائج هذه البحوث.

إن الأمثال الشعبية ليست وليدة نظام فكري أو سلوكي، بل هي "رؤية تعبر عن السيرورة الحضارية للشعوب في ارتباطها بماضيها وحاضرها ومستقبلها، حيث يشترك أكثر من ظرف في نسج صورة المثل، وعلى العموم يساهم في بناء المثل العلماء والفقهاء ورجال والسياسة والأفراد العاديون البسطاء، مما يعطي المثل ديناميكية التأثير، ويربطه بالأحداث والمواقف المختلفة في الحياة اليومية" (أيوب، 1999، 78).

ومن جانب آخر فالثقافة المعاصرة يسيطر عليها الشك والاضطراب، والقيم الإلكترونية المتمثلة في مواقع التواصل الاجتماعي وشبكات الإنترنت بشكل عام، فهذا ليس معناه السلبية المطلقة، ولكنها خلقت هوةً أو فراغًا بين قيمنا المعنوية والمادية، لذلك يجب أن تُفتح الآفاق للدراسات والبحوث، وتوجه نحو هذا الأمر؛ لاحتوائه ومعالجته السليمة لهذه الإشكالية.

ومن جانب آخر التصدي لمواجهة الهجوم المادي على الحضارة العربية في إطار الهجوم وتعّرض هذا التراث للتلاشي والاندثار، إذا لم نحافظ عليه، وفي هذا الشأن يشير عابد الجابري إلى "أن العرب لجأوا إلى تراثهم؛ ليواجهوا التحدي الثقافي الذي واجههم به الاستعمار" (الجابري، 1994، 251).

إنّ الأمثال الشعبية جزء من التراث الثقافي الذي يجسد هوية المجتمع الحضارية، وهو يمثل مع غيره من القيم والموروثات التراثية كلٌّ لا يمكن بناء الذات الثقافية للفرد والمجتمع، أو مواجهة التحديات الثقافية الخارجية إلاّ بالحفاظ عليه.

خاتمة:

لا شكَّ في أن المثل الشعبي يؤثر في سلوك الناس بشكل كبير، غير أنه من المفيد أن نلاحظ هنا أن كثيراً من هذه الأمثال تتناقض أحياناً، حتى ولو ارتبطت مصادرها بسياق مجتمعي وظروف جد متشابهة، إلاّ أن هذا التناقض ظاهري فقط؛ لأنَّ الحالات الاجتماعية والتجارب الفردية شديدة التغيُّر والتنوع، ولكل حالة تجربة ما، تُعبّر عن مثل بعينه، ولو اكتفت الأمثال بذكر جوانب معينة، وأهملت أخرى سعياً وراء تلافي السقوط في المتناقضات لما عُدّ المثل صورة للفكر الشعبي وخبراته، ولكانت الأمثال تعبيراً عن جزء ظاهري، واختفت جوانب حياتية أخرى كثيرة؛ لأن الأمثال لا تقوم قطعاً بإظهار سلوك فئة مميزة من البشر في مظهر منطقي متجانس وأمام وضعية بحث معينة، بل الأمثال خزانة للتراث، تتراكم فيها صور الحياة، وعبرها تبرز التناقضات الحياتية، وتنوع المواقف البشرية، وفق الظروف المحيطة بالحادث.

فالأمثال أكثر أنواع الأدب الشعبي قدرة على حفظ أفكار أفراد المجتمع وسلوكه وحمله وترجمته، وعاداته وتقاليده وأعرافه ومعتقداته الاجتماعية، فهي كوعاء يحوي ثقافة المجتمع الذي أنتجها، وحافظ عليها بالتداول والتناقل عبر الأجيال. فالمثل يحتل مكانة بين أشكال الأدب الأخرى؛ لأنه يأتي في مقدمتها، فمن خلال الكثير من الأمثال نستطيع تصوير الحياة الاجتماعية وما يدور فيها من علاقات وتعاملات وأحداث وغير ذلك. وبالتالي فهي تتميز بالشيوع والتداول بين الأوساط الشعبية، وموجزة، وهذا ما ساعدها على التناقل، فهي تعبر عن واقع المجتمع وأعرافه وتقاليده، ويمثل هذا الجانب أحد أهم الوظائف التي يقوم بها المثل، إضافة إلى جملة أخرى من الوظائف التي يؤديها المثل كما أوضحنا آنفاً، فلا شكَّ في أنها تؤدي دوراً يساهم في التأثير على السلوك الفردي والجماعي في المجتمع.

بهذا العمل نأمل أن نكون قد وفقنا في الإحاطة ببعض جوانب هذا الموضوع المهم، من حيث بنيته، وأهميته وموضوعاته ووظائفه الاجتماعية، فالجانب الاجتماعي في اعتقادنا يبقى الميدان والوسط الأكثر تأثيراً وتأثُراً، وهو محك كل تجربة إنسانية في مختلف مواضيع الحياة، التي تجعلها مسرحاً لتضارب مختلف مكونات الإرث والثقافة الشعبية والأجناس الأدبية الأخرى وتداخلها.

وأنه لابد لضمان استمرارية مختلف هذه المأثورات الشعبية وبقائها، وخصوصا المثل الذي كان موضوع عرضنا هذا، فيجب أن ندرس الأمثال في بيئتها الاجتماعية، ونؤرخ لها، ونحافظ عليها؛ لأنها تحكي قصة فترة زمنية معينة من جوانبها المختلفة. وأننا لربما سوف نستقبل ونقبل –مرغمين– أمثالاً شعبية تعبر عن النظام الإلكتروني، الذي يطغى حالياً على الكثير من مجتمعاتنا، أمثالاً تتخللها كلمات مثل: "سمايل، ولايك، وبلوك" وما شابه ذلك، ولا ندري ما سوف يكون عليه الأمر بعد عقد أو عقدين من الزمن؟

فالأمثال تبقى، واستمراريتها ووظيفتها في مدى توارثها وترددها على ألسنة الأفراد والجماعات، ومدى ملاءمتها الجمالية الجماعية لمختلف المهتمين والمعنيين بهذه الأشكال التعبيرية. وأخيراً لابد أن نشير إلى أن اهتمامنا بهذا الموضوع كان محاولة لفهم الوظيفة الخفية الكامنة وراء الأمثال الشعبية، والتعرف عليها عن كثب، بطرح بعض الأمثلة لبعض الأمثال الشعبية في ثقافتنا العربية والشعبية.

قائمة المصادر:

1. إبراهيم، نبيلة (1974)، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة.
2. ابن عبد ربه، العقد الفريد (1982)، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ج3، 1402هـ .
3. أبو الفتوح، علي (1995)، التحليل المقارن للأمثال الشعبية في اللغتين العربية والروسية، جامعة الملك سعود، الرياض.
4. أبو جادو، صالح محمد علي (2000)، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، دار المسيرة، ط2، عمّان.
5. أيوب، عبد الرحمن (1999)، الذاكرة واللسان، المجلة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
6. البقلي، محمد قنديل (1968)، وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
7. الجابري، محمد عابد (1994)، المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
8. الحداد، فيصل مفتاح (1998)، الأمثال المولدة وأثرها في الحياة الأدبية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري (دراسة تحليلية)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
9. الحمداني حميد، الرواية المغربية (1985)، دراسة بنيوية تكوينية، دار الثقافة، الدار البيضاء.
10. رفعت، سلام (1989)، بحثا عن التراث العربي ، نظرة نقدية منهجية، دار الفارابي، بيروت، ط1 .

11. الزركشي، محمد بن عبد الله (1972) البرهان في علوم القرآن : ج1، دار المعرفة، بيروت.
12. السنّاد، جلال غربول (1992)، المثل الشعبي ودلالته الاجتماعية ، دار الهجرة ، دمشق.
13. السيوطي، جلال الدين (1968)، المزهر في علوم الأدب وأنواعها، شرحه وحققه محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، مطبعة محمد علي صُبيح، القاهرة ، ج1.
14. شعلان، إبراهيم أحمد (1972)، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
15. طه، جمانة (2002)، موسوعة الروائع في الحكم والأمثال، الدار الوطنية الجديدة ودار الخيال، بيروت، الطبعة الثانية.
16. العسكري، أبو هلال (1988)، جمهرة الأمثال، دار الكتاب العلمية، بيروت، ج1.
17. كيال، منير (1997)، معجم دُرر الكلام في أمثال أهل الشام ، مكتبة لبنان، بيروت.
18. محمد، أحمد على الحاج (2014)، علم الاجتماع التربوي المعاصر، دار المسيرة، ط2، عمّان.
19. الميداني، أبو الفضل (2007)، مجمع الأمثال، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، مج 1، ط 2.
20. همشري، عمر أحمد (2013)، التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان.
21. اليزيدي، أمين عبد الله محمد حسين(2005)، الخصائص الفنية في الحكم والأمثال العربية دراسة تحليلية تطبيقية على كتاب مجمع الأمثال للميداني، اطروحة دكتوراه غير منشورة جامعة النيلين، الخرطوم.